التأريخ لبدايات انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

في ضوء الأدلة الأثرية

د. بطل شعبان محمد غرياني

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد،
كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة.

تُعَدّ مسألة التأريخ لبدايات انتشار الإسلام في مدن وممالك إفريقيا جنوب الصحراء أحد أهم الموضوعات التي أثير حولها الكثير من التساؤلات ووقع حولها الخلاف؛ لأن انتشار الإسلام هناك بالطرق السلمية عن طريق الهجرات والتجار والدعاة يجعل تحديد تاريخ محدد لانتشار الإسلام أمراً بعيد المنال؛ لأن إسلام أهل هذه البلاد لم يحدث نتيجة غزو.

ونتيجةً لهذا؛ أصبح التأريخ لبدايات دخول الإسلام إلى مدن وممالك إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى عرضة للتأويلات المختلفة والمتضاربة أحياناً، والتي هدف بعضها إلى إثبات تأخر دخول الإسلام إلى تلك المدن والممالك، وهي مساعٍ مقصودة، الهدف منها إثبات تأخر انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا حتى القرن السادس للهجرة لكي يصلوا إلى الرأي القائل بأهمية دور الهجرات غير العربية؛ ولاسيما الشيرازية في نشر الإسلام هناك.

وبالمثل؛ كان الهدف من محاولة إثبات تأخر انتشار الإسلام إلى القرن الخامس للهجرة في بلاد السودان الغربي (غربي إفريقيا) هو الربط بين الوجود المرابطي ونشر الإسلام بواسطة الحملات الجهادية للمرابطين، أي أنهم حملوا السودانيين على الإسلام بالقوة لا بالسلم والإقناع. كما كان الهدف من ذلك أيضاً الربط بين إسلام الملوك أولاً وعملية انتشار الإسلام بين رعاياهم، وهو مسعىً نظنه متعمداً لإثبات أن انتشار الإسلام في تلك البلاد كان نتاجاً للمصالح التجارية بين ملوك تلك البلاد والتجار المسلمين الوافدين عليهم، وأن الإسلام كان بحاجةٍ إلى اعترافٍ رسمي وقوةٍ سياسية تحميه، وهذا يجانب الواقع تماماً؛ بدليل انتشار الإسلام بين الرعايا أولاً ثم اعتناق الملوك له، كما هو الحال في مملكة غانة، ومدينة جاو.

إن الدارس لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي يعاني من ندرة المصادر المدوّنة؛ ولذا كان من الضروري الاتجاه مؤخراً نحو دراسة آثار الإنسان في هذه البلاد من نقوش وردت على شواهد القبور، وأدوات ومصنوعات، وأطلال منشآت وردت في تقارير الحفائر الأثرية التي أُجريت في مواقع متعددة من منطقة إفريقيا جنوب الصحراء. وتحمل هذه الشواهد الأثرية بين طياتها خفايا التاريخ المسكوت عنه في المصادر المتاحة. وعلى المؤرخ المعاصر أن يستنطق هذه الشواهد حتى تبوح بأسرارها، وهذه الشواهد هي ما نسميه بـ«المصادر المادية».

قدمت المصادر المادية أدلة موثوقة حول انتشار الإسلام في مدن وممالك السودان الغربي (غربي إفريقيا)... ومن ثم دحضت بعض الآراء التي حاولت التشكيك.

ويصعب الطعن في قيمة الأدلة الأثرية التي تركها الإنسان أو التشكيك في أصالتها، فقد جاءت عفويةً معاصرةً للأحداث التي تسجلها، كما أنها محايدةٌ تسدّ الفراغ في المصادر التاريخية. إن قيمة هذه المصادر المادية تكمن في أنها تكشف النقاب عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تسكت عنها المصادر المدوّنة، سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة. وتتوقف قيمة الاستعانة بتلك المصادر المادية على مدى قدرة المؤرخ المعاصر على الفحص والدرس لهذه المصادر، وقدرته على نقد ما ورد في تقارير علماء الآثار الذين قاموا بالحفائر، أي نقد ما تحت يديه من تقارير الأثريين وتفسيراتهم، بالإضافة إلى قدرته على استخلاص الحقائق وتفسيرها

وتنظيمها وعرضها[١].

في ضوء ما سبق؛ فإن ندرة المصادر المكتوبة الأصلية المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي، يدفع إلى التركيز على المصادر المادية (مثل تقارير الحفائر الأثرية، وشواهد القبور، والنقوش غير الجنائزية، والعملات) كأحد الأدوات الرئيسة لسدّ هذه الفجوة التاريخية. وتنبع مشكلة الدراسة من التحدي المتمثل في كيفية توظيف هذه المصادر وتحليلها لفهم بدايات انتشار الإسلام ومدى تأثيره.

أما عن منهج الدراسة؛ فهو منهج البحث التاريخي، والذي يفيد من العلوم المساعدة ولاسيما علم الآثار، فضلاً عن الإفادة من الأدوات المختلفة لهذا المنهج، وفي مقدمتها المقارنة، للوقوف على ما قدّمته المصادر المدونة تاريخيةً وجغرافيةً من معطيات حول بدايات انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، مقارنةً بما قدّمته الأدلة الأثرية من معطيات جديدة، للوصول إلى استنتاجات مهمة بخصوص موضوع هذه الدراسة.

أولاً: انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا وجزر المحيط الهندي:

١) انتشار الإسلام في جزر القمر:

على الرغم من إسهام هذه الجزر بدورٍ مهم في تاريخ المحيط الهندي والدول المشاطئة له، وبرغم ما كان للعرب المسلمين من شأنٍ كبير في أحداث المحيط الهندي وتفاصيل حضارته بفضل معرفتهم لفنون الملاحة ومسالك البحر وعلم الفلك، وتفوقهم في ذلك، لم يرد بمصادرنا الإسلامية إلا القليل عن ذلك المحيط، ولا يمثل سوى القليل جدّاً حول تاريخ وحضارة جزر القمر، فضلاً عن تناقض الأخبار المتعلقة بها، باعتبارها منطقة متطرفة عن لُبّ العالم الإسلامي، ولم تحظ لدى أصحاب تلك المصادر بكثيرٍ من الاهتمام؛ لأنهم أولوا اهتمامهم للمناطق التي فتحها المسلمون، وانشغلوا بتحديد مواضع تلك البلدان، وكيفية السفر إليها، ومقدار الخراج المفروض عليها، إلخ. فأغلب ما ورد في المصادر الإسلامية حول تاريخ وحضارة المحيط الهندي يدور حول كونه معبراً مهماً لتجارة المسلمين مع الحبشة والصين والهند، وقد انعكس ذلك على المسميات التي أطلقها مؤلفو تلك المصادر على المحيط الهندي، فُسمّي «البحر الحبشي» عند المسعودي (المتوفى عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م)[٢]، و«البحر الصيني» عند المقدسي (المتوفى عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م)[٣]، و«بحر الهند» عند البيروني (المتوفى عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)[٤]، و«البحر المحيط الجنوبي» عند شيخ الربوة (المتوفى عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)[٥].

أضف إلى ما سبق؛ اعتمدت الإشارات المصدرية الخاصة بمنطقة شرقي إفريقيا

(١) حسين مراد، رؤى جديدة في اتجاهات الكتابة التاريخية لإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي، بحث ألقي في الندوة الدولية «تاريخ إفريقيا»، نظمته أكاديمية المملكة المغربية بالتعاون مع وزارة الشباب والثقافة والتواصل، المملكة المغربية، ٢٠٢٣ (قيد الطباعة)، ص (١، ٢).

(٢) التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص٦٢.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٦٧، ص١٢.

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٥٨، ص١٥٧.

(٥) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزك، ١٩٢٨، ص١٤٨.

عامةً-رغم ندرتها- على الروايات الشفهية التي جُمعت من طرف التجار، ولم يكن هناك أي دليل أو سند يؤكد صحتها. ولهذا؛ فإن أغلب ما ورد في المصادر الإسلامية حول تاريخ تلك المنطقة عبارة عن طرائف وعجائب، وقصص غير قابلة للتصديق؛ ولهذا لم يبالغ كراتشوفسكي حينما صنَّف منطقة شرقي إفريقيا والجزر المجاورة لها ضمن المصادر المهمة لأساطير الجغرافية في الأدب العربي[1].

أ- شح المصادر المدونة وأهمية المصادر المادية بالنسبة لانتشار الإسلام في جزر القمر:

وعلى ذلك؛ فإن الباحث في تاريخ تلك الجزر وغيرها من بلدان المحيط الهندي والساحل الشرقي لإفريقيا يجد نفسه أمام معضلة كبيرة تتعلق بشح المصادر والشكوك المثارة حول مضمونها نتيجة استنادها للروايات الشفهية غير الموثقة أو المؤكدة بأدلة، وخلو المصادر التاريخية المدوّنة من تلك الروايات.

ولذلك؛ تأتي أهمية المصادر المادية متمثلةً في تقارير الحفائر الأثرية، والتي تقدّم معطيات جديدة غايةً في الأهمية يمكننا الإفادة منها في التأريخ لتلك الجزر بوجهٍ عام، ومحاولة تحديد بدايات انتشار الإسلام هناك على نحوٍ خاص.

- نقد رواية شفهية سجلتها إحدى المخطوطات عن انتشار الإسلام في جزر القمر:

وتتضح أهمية هذه المعلومات المادية بالنسبة لانتشار الإسلام في جزر القمر إذا ما طالعنا المصادر التاريخية والجغرافية المدوّنة؛ إذ لا يوجد بخصوص هذه القضية بالغة الأهمية أية معلومات؛ باستثناء رواية شفهية سجلتها إحدى المخطوطات التي عُثر عليها في جزيرة مايوت- إحدى جزر القمر.

هذه الرواية تفيد: أنّ الإسلام انتشر في نهاية الربع الأول من القرن الأول للهجرة، وتشير الرواية إلى وصول نبأ ظهور دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقام على الفور أحد كبار القوم باستشارة أهل بلاده للسفر لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج شخصان هما: «متسو-موينزا» Mtswa Muyindza أمير منطقة مبودي Mboude، و«فِي بِيجَامُوَامْبَا» Febedjamwamba أو «فيبيجا» أمير منطقة دومبا Domba، على متن سفينة شراعية، قاصدين مكة المكرمة، وعندما وصلَا إلى هناك علمَا بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكنهما واصلَا رحلتهما إلى المدينة المنورة، ووصلَا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م)، ومكثَا هناك قرابة عامين، تعلّما القرآن والفقه والشريعة الإسلامية، ثم عادَا لبلادهما لنشر الإسلام، ونزلَا بعد عودتهما في بلدة نتساويني Ntsaouéni[2]، حاملَين معهما القرآن الكريم وبعض كتب الفقه، كما رافقهما محمد ابن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ليقوم بنشر الإسلام وتعليم الناس الدين الجديد، وبنوا مسجداً في مدينة نتساويني، ثم

(١) تاريخ الأدب الجغرافي، نقله إلى العربية صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٤١؛ بطل شعبان محمد، تاريخ جزر القمر وحضارتها خلال القرون الستة الأولى للهجرة، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد ٧١، يناير ٢٠٢٢، ص٢٠٢.

(٢) نتساويني: بلدة ساحلية في منطقة مبودي على الساحل الشمالي الغربي لجزيرة نجازيجيا، وتبعد عن العاصمة موروني بحوالي ٣٠ كيلو متراً. محمد ذاكر السقاف، استعمار جزر القمر (١٨٤٣-١٩١٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ١٩٩٤، ص٣٩؛ إمباي طاهر يوسف، انتشار الدعوة الإسلامية في جزر القمر، ضمن أعمال المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا»، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، الكتاب الحادي عشر، نوفمبر ٢٠٠٦، ص٢٣٥.

بنوا مسجداً آخر في بلدة بنداماجي لادومبا Badamadji Ladomba بجزيرة القمر الكبرى. وتشير الرواية أيضاً إلى وفاة محمد بن عثمان بن عفان بجزر القمر[١]. وقد بدأ هؤلاء الدعاة في نشر الإسلام في باقي أنحاء جزر القمر، فنشروه في جزيرة القمر الكبرى، ثم في أنجوان، ثم في موهيلي، وأخيراً في مايوت[٢].

وبالنظر في هذه الرواية؛ نجد احتواءها على بعض التفاصيل غير الواقعية:

– فلم يرد الحديث عن الوفد القمري المزعوم في كتب السيرة التي تناولت بدايات انتشار الإسلام بالتفصيل، وتحدثت عن الوفود التي كانت تأتي للنبي صلى الله عليه وسلم من مختلف البلدان وتعلن إسلامها منذ العام التاسع للهجرة[٣].

– كما أنه لا يُعقل أن ينطلق الوفد القمري لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يصل في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه، فوفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت عام (١١هـ/٦٣٢م)، وتولى عثمان رضي الله عنه الخلافة عام (٢٣هـ/٦٤٤م)، وهذا يعني أن رحلة الوفد القمري استمرت لأكثر من اثني عشر عاماً، وهذا غير منطقي.

– ومما يشكك في صحة الرواية أيضاً خبر زيارة محمد بن عثمان بن عفان للجزر، والغريب ليس في استبعاد وقوع هذه الزيارة فقط، بل إن الخليفة عثمان رضي الله عنه أنجب تسعةً من البنين[٤]، لم يُسمِّ أحداً منهم محمّداً.

– كما أن ما قيل عن حمل الوفد كتب الفقه إلى الجزر فغير صحيح أيضاً، إذ لم تكن هناك كتبٌ للفقه خلال تلك الفترة المبكرة من صدر الإسلام.

وعموماً؛ فهدف هذه الرواية هو ربط إسلام الجزر بالشَّرَف الذي ناله الوفد القمري بلقاء الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، واصطحاب ابنه للجزر، وقيامه بالدعوة إلى الإسلام بين القمريّين.

ب- الحفائر الأثرية تثبت بداية الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي لإفريقيا:

إن الإسلام لم ينتشر في جزر القمر مع نهاية الربع الأول من القرن الأول للهجرة كما تزعم الرواية السابقة، وإنما يرجع انتشار الإسلام في الجزر إلى الربع الأخير من ذلك القرن.

والدليل على ذلك: ما أفصحت عنه تقارير الحفائر الأثرية التي أجراها الباحثان التنزانيان إبراهيم مستقيم Ibrahim Moustakim ، وفليكس تشامي Chami Felix، في موقع المسجد ببلدة نتساويني، فقد عثرَا على بقايا جدران هذا المسجد، وعلى بقايا محراب من الجص، ثم لوحظ أيضاً بقية

(١) المرجع السابق، ص (٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) محمد ذاكر السقاف، مرجع سابق، ص٣٩.
Moustakim, Ibrahim and Chami, Felix: Archaeological excavation of the earliest known mosque in Comoros, and East Africa, Studies in the African Past: The Journal of African Archeology Network, Vol.12, Vovember.1, 2015, pp.10, 11, 15.

(٣) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، (ج٤، ص٢٠٥)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، حققه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، (ج١، ص٢٢٢ وما بعدها)؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، (ج٣، ص١٣٨، ١٣٩)؛ بطل شعبان، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٤) هم: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وعمرو، وخالد، وأبان، وعمر، والوليد، وسعيد، وعبد الملك. انظر: ابن سعد، مصدر سابق، (ج٣، ص٣٩، ٤٠).

جدار للمنبر. وهذا يؤكد أن المسجد المكتشف كان مسجداً جامعاً[١]. وباستخدام الكربون ١٤ تبيّن أن المسجد بُني خلال الفترة من سنة ٦٠٠ إلى سنة ٧٠٠م، وهذا ما جعل كلاً من مستقيم وتشامي يسلّمان بصحة ما جاء في الرواية الشفهية المتداولة، والجزم بأن الوفد القمري وصل إلى مكة، وبنَى مسجد نتساويني بعد عودته[٢].

والواقع؛ أنه ليس هناك مجالٌ للربط بين ما جاء في تلك الرواية وما جاء في تقارير الحفائر، بل الأحرى أن نربط بين بعض الإشارات المصدرية وتلك التقارير، فالإشارات المصدرية تؤكد أن بداية الهجرات العربية إلى ساحل شرقي إفريقيا كانت تلك التي تزعّمها سعيد وسليمان ابنا عباد الجلندي الأزدي، والتي خرجت من عمان في الفترة ما بين عامي (٧٥-٨٥هـ/٦٩٤-٧٠٤م) أثناء الصراع الذي دار بين أزد عمان من بني الجلندى والحجاج بن يوسف الثقفي (المتوفى عام٩٠هـ/٧١٤م) زمن خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٣-٧٠٥م)، وأدى إلى نزوح الكثيرين منهم إلى شرقي إفريقيا[٣].

وعلى هذا؛ ففي ضوء الحديث عن بدء الهجرات العربية في الفترة من (٧٥-٨٥هـ)، وفي ضوء ما جاء في تقارير الحفائر بأن بناء مسجد نتساويني تم في الفترة ما بين عامي (٦٠٠-٧٠٠م)، يُرجَّح أن بناء هذا المسجد قد تم على أيدي العرب العمانيين بين عامي (٧٥-٨١هـ/٦٩٤-٧٠٠م).

ويُستشف مما سبق؛ أن بداية تعرُّف تلك الجزر على الإسلام ترجع إلى الربع الأخير من القرن الأول للهجرة؛ بوفود الهجرات العربية، التي استقرت بالجزر واستقر معها دين الإسلام[٤]. ويؤكد هذا أيضاً ما ذُكر عن وصول بعض العمانيين إلى جزيرة قنبلو (أنجوان) ونشرهم للإسلام، ويُرجَّح أنهم كانوا ممن هاجر مع الجلنديين (٧٥-٨٥هـ/٦٩٤-٧٠٤م). وفي هذا الصدد يذكر الشيخ برهان بن محمد مكلا القمري، أن الإسلام انتشر في جزر القمر منذ عام ٨٦ أو ٩٦هـ[٥].

هكذا؛ ثبت أن القمريين عرفوا الإسلام منذ الربع الأخير من القرن الأول للهجرة، ومن ثَمّ فلا عبرة بالرأي القائل بانتشار الإسلام في جزر القمر خلال القرن الرابع للهجرة على أيدي الشيرازيين، ولا بالرأي القائل بإسهام العرب والشيرازيين معاً في ذلك[٦].

وبذلك يكون مسجد نتساويني هو أقدم مسجد في شرقي إفريقيا والجزر المواجهة له، وهو أقدم من مسجد لامو- بكينيا حالياً- الذي أُسّس في القرن الثاني الهجري، وعدَّه البعض أقدم مسجد في شرقي إفريقيا[٧]. وثبت أيضاً خطأ أولئك الذين عارضوا أقدمية انتشار

(١) Moustakim, Ibrahim and Chami, Felix: Op.cit, p.24.

(٢) Ibid, p.27.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥، (ج١، ص٨٤)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حققه عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧، (ج٣، ص٤٢٩، ٤٣٠)؛ بطل شعبان، مرجع سابق، ص٢١٠، وما بعدها.

(٤) إمباي طاهر يوسف، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٥) برهان محمد مكلا القمري، تاريخ جزائر القمر، ورقة ٤؛ نقلاً عن إمباي طاهر يوسف، مرجع سابق، ص٢٢٦.

(٦) محمد الفاسي وإيفان هربك، مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا، إشراف م. الفاسي، إ. هربك، اليونسكو، ط٢، ١٩٩٧، (ج٣، ص١١١).

(٧) Moustakim, Ibrahim and Chami, Felix: Op.cit, pp.10, 14.

الإسلام ووجود مسجد يرجع للقرن الأول للهجرة، واستبعدوا حدوث ذلك، حيث زعموا بأن تقنية البناء بالحجر والجير المستخدمة في بناء مسجد الجمعة في نتساويني لم تُعرف على الساحل السواحيلي قبل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. كما عارض البعض انتشار الإسلام في أرخبيل جزر القمر منذ القرن الأول للهجرة؛ مستبعدين أن يذهب إفريقي إلى مكة في تلك الفترة المبكرة ويعود للدعوة إلى الإسلام[١].

٢) انتشار الإسلام في أرخبيل لامو:

يُعدّ أرخبيل لامو أحد أهم وأقدم المناطق التي انتشر بها الإسلام على الساحل الشرقي لإفريقيا، ويضم هذا الأرخبيل مجموعة من الجزر، منها: لامو Lamu عاصمة ذلك الأرخبيل، وبات Pate، وكيونجي Kiunge، وفازا Fasa التي أطلق عليها البرتغاليون اسم: أمبازة Ampaza، وماندا Manda[٢].

وتُعدّ لامو التي حمل الأرخبيل اسمها أهم جزر هذا الأرخبيل، وتضم لامو عدداً من المدن الرئيسة، منها: شيلا Shela، وكيبونجاني Kipungani، وماتوندوني Matondoni[٣]، هذا فضلاً عن تاندوا Tandwa، وتكوا Tkowa اللتين عُثر فيهما على آثار لأطلال مساجد قديمة[٤]. وتُشكّل جزيرتا «بات» و«ماندا» مع جزيرة «لامو» أهم جزر الأرخبيل قاطبةً وأكثرها سكاناً، وقد شهدت الجزر الثلاث قيام مدن قديمة كانت مراكز مهمة للاستيطان والتجارة على الساحل الشرقي لإفريقيا. ووُصفت لامو بأنها دولة مدينة تشكلت نواتها الأولى خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وكان ظهورها مرتبطاً بحركة التجارة التي تزايدت على نحوٍ كبير مع توافد أعداد كبيرة من التجار الذين قدموا لا للتجارة فحسب؛ وإنما للاستقرار الدائم في تلك الجزيرة وغيرها من جزر الأرخبيل، غير أن لامو تبوأت مكانةً كبيرة بين تلك الجزر حتى صارت بمثابة عاصمة لها[٥].

وأكدت أدلة الحفائر الأثرية الأثر الحضاري الكبير الذي تركته الهجرات الوافدة على الساحل الشرقي لإفريقيا منذ وقتٍ مبكر؛ إذ تشير تلك الأدلة إلى بقايا استيطانٍ ترجع إلى نحو ألف ومائتي عام[٦]، ولاسيما في «بات» التي نمت لتصبح من أكثر المناطق المواجهة للساحل تأثيراً سياسياً واقتصادياً، ثم أصبحت «بات» الطريق الذي استخدمه العرب للسيطرة

(١) Verin, P.: Mtswa Muyindza et l'introduction de l'Islam a Ngazija. Au sujet de la tradition et du texte de Pechmarty, Йtudes Oсйan Indien, Vol.2, 1983,pp. 95-100, Villard, P.: Les antiquitйs de la Grande Comore, Taloha IV, Vol.4, 1971, pp.I73-177, Wright, H. T: Early Seafarers of the Comoros Islands: the «Dembeni Phase» of the 9th to 10th centuries AD, Azania, Vol.19, 1984, pp.25-29.

(٢) جي كيركمان، الوجود المبكر لعُمان الإسلامية في شرقي إفريقية، ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٨٠، (جـ٥، ص٢٧٤).
Ghaidan, U.: Lamu: A Case study of the Swahili - town, The Town Planning Review, Vol.45. No.1, 1974, p.85.

(٣) Ibid. p.84.

(٤) عبد الرحمن زكي، الإسلام والحضارة العربية في شرق إفريقيا، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٤، (مج٢٢، ص٤٥).

(٥) محمد جاب الله علي، أرخبيل لامو خلال القرون الستة الأولى للهجرة دراسة تاريخية في ضوء الأدلة الآثارية، مجلة الدراسات الإفريقية، كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، مجلد٤٦، عدد١، يناير ٢٠٢٤، (ج١، ص١-٣).

(٦) Wilson, T. H., & Omar, A. L.: Excavation at Pate on the East African coast, Aspects of African Archaeology, 1996, p.543.

على تجارة شـــرقي إفريقيا مع الخليج العربي، وهي أيضاً الطريق الذي استخدمه البرتغاليون للسيطرة على تجارة غرب المحيط الهندي عبر السيطرة على جزر الأرخبيل[١].

أ- المصـادر العربيـة والروايات التي تحدثت عن انتشار الإسلام في لامو:

على الرغم من أهمية جزر أرخبيل لامو في خدمة حركة التجارة في منطقة الســـاحل فإن المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية لم تتناولها بقـــدرٍ من التفصيل، وإن قدّمت لنا بعض التفاصيل الخاصة ببعض جزر الأرخبيل، ولاسيما جزيرة بات التي شـــهدت إبان القرن الســـابع للهجـــرة/ الرابع عشـــر للميلاد قيام سلطنة بات الإســـلامية التي أقامها آل نبهان العمانيون. ولم تحظ لامو وبقية جزر الأرخبيل إلا بالنزر اليســـير من المعلومات في المصادر الإســـلامية، وذلك على الرغم مـــن تناول تلك المصادر لبعض جهات من الســـاحل الشرقي لإفريقيا والجزر المواجهة له، وإن كان اهتمام هذه المصـــادر قد تركز علـــى الجزر والمدن المشهورة بالتجارة والســـلع التجارية الشهيرة والمهمة، وبخاصةٍ معـــدن الذهب، والعلاقات التجارية بين هذه المـــدن والمراكز التجارية، ولهـــذا ركزت بعض المصادر الإســـلامية على جزيرة قنبلو kambalu (التي وقع الاختلاف حـــول تحديـــد موقعهـــا[٢]، ويُرجِّـــح البعض أنهـــا إحدى جـــزر القمر)[٣]، ومدينة سُـــفالة

(١) Bita, C.: The Role of the National Museum in MUCH management and regional capacity building: current research in Kenya, Maritime and Underwater Cultural Heritage Management on the Historic and Arabian Trade Routes, 2020. pp.104-105.

(٢) على الرغم من اعتقاد البعض بأن «قنبلو» هي جزيرة مدغشقر، يرجح ألفريد جوفري أن «قنبلو» التي ذكرها المسعودي هي جزيرة القمر الكبرى؛ فهو يتحدث عن أن هذه الجزيرة تبعد عن الساحل لمسيرة يوم أو يومين، واستبعد جوفري أن تكون «قنبلو» هي مدغشقر، لأن المسعودي لم يصف هذه الجزيرة بالضخامة، فضلاً عن استحالة غزو المسلمين لها، كما أن المسعودي لم يتحدث عن جزر القمر رغم أن المراكب الشراعية العربية كان لابد لها أن تمر بجزر القمر حتى تصل إلى مدغشقر. وفي المقابل نميل للأخذ برأي جيان، فهو ربان سفينة وعلى علم بالملاحة، أكد أنه لا يمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر في زمن المسعودي إلا بالوصول أولاً إلى جزيرة القمر الكبرى، وهذا يعني أنه لابد أن يكون المسعودي قد زارها، هذا فضلاً عن صعوبة التسليم بفتح المسلمين لجزيرة كبيرة كمدغشقر وتغلّبهم على أهلها في وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة. انظر: مروج الذهب، (ج٢، ص١٤).
Gevrey, Alfred: Essai sur les oles Comores, - University of Ottawa, 1870, pp.24-26.
- جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، نقله إلى العربية يوسف كمال، القاهرة، ١٩٢٧، ص١٦٤؛ - جمال زكريا، مرجع سابق، ص (١٧٨، ١٧٩).
وفضلاً عن هذا يُستبعد أن تكون «قنبلو» هي مدغشقر، لأن المسافة التي قدّرها المسعودي بخمسمائة فرسخ بين ميناء صحار العماني وجزيرة «قنبلو» لا تساوي نصف المسافة بين صحار وجزيرة مدغشقر، فجزر القمر أقرب إلى عمان وبلدان شبه الجزيرة العربية وإلى المناطق الإسلامية في شرقي إفريقيا من جزيرة مدغشقر. انظر: مروج الذهب، (ج٢، ص١٤)؛ جيان، مرجع سابق، ص (١٦٠-١٦٥)؛ رجب محمد عبد الحليم، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين، مطابع النهضة، مسقط، ١٩٨٩، ص٢٦٤.
ويرى البعض أن «قنبلو» هي جزيرة زنجبار، ونسوق من الأدلة ما يرجح أنها ليست كذلك، وإنما هي على الأرجح إحدى جزر القمر، وخاصةً جزيرة القمر الكبرى، ومن تلك الأدلة أن المسافة بين «قنبلو» وساحل الزنج نحوٌ من يوم أو يومين حسب المسعودي. بينما لا تبعد زنجبار عن الساحل سوى خمسة وثلاثين ميلاً تقطعها المراكب في مدة قليلة جداً. انظر: مروج الذهب، (ج٢، ص١٤). ومن الأدلة أيضاً على أن «قنبلو» ليست زنجبار، ما ذكره الأوسي السيرافي عن حصانة قنبلو الشديدة في القرن الرابع الهجري، وأنها وسط البحر كالقلعة الحصينة، ولم تتمتع زنجبار بمثل هذه الحصانة وقتئذ. انظر: الصحيح من أخبار البحار وعجائبها، ص (١٩٢-١٩٤)؛ حسين فوزي، حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣، ص١٠٧.

(٣) اتفق الكثيرون على أن «قنبلو» هي جزيرة أنجوان القمرية، فالأوصاف تنطبق عليها لخصوبة أرضها ووفرة

Sofala[١]، ومدينة مركة Marka[٢]، وسفالة Sofala، ومالندي Malindi، وجزر القمر Comoro Islands، وكلوة Kilwa، وممبسة Mombassa[٣].

ويُعدّ ابن سعيد المتوفى عام (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) من المصادر العربية القليلة التي تحدثت عرضاً عن لامو، وذكر جانباً من تاريخها السياسي، فذكرها باسم «ملاي» في معرض حديثه عن جزر القمر، وبخاصة ليرانة التي ذكر أن لامو إلى الشرق منها، ولكن يتضح مما ذكره أن حاكم لامو قد فرض سيادته على عدد كبير من الجزر المحيطة بهم، حيث أشار إلى أن أشياخ ليرانة يدارون صاحب لامو[٤].

وهكذا؛ يتبين شُح المعلومات الواردة في المصادر المدوّنة حول تاريخ جزر لامو عامة، وقضية انتشار الإسلام بها على وجه الخصوص.

ويتلخص مجمل ما تُقدّمه المصادر حول تاريخ انتشار الإسلام، سواء في لامو أم في ساحل شرقي إفريقيا بوجهٍ عام، في الحديث عن وصول بعض الهجرات العربية والشيرازية- نتيجة لعوامل مختلفة- إلى تلك الجهات واستقرارهم هناك وإسهامهم في نشر الإسلام بين الأهالي، لكنها لم تحدد في الغالب المكان الذي وصلوا إليه على وجه الدقة؛ لأن مثل هذه التفاصيل لم تكن تشغل سوى التجار أو النواخذة الذين لم تكن نشاطاتهم تحظى بالتدوين[٥]، كما أنها لم تؤرخ لبدايات نشرهم للإسلام أو تأسيسهم للمساجد في تلك المنطقة.

وفي هذا الإطار- ومثلما كان الحال في جزر القمر- يأتي دور الروايات الشفهية التي تتحدث عن الكيفية التي انتشر بها الإسلام في لامو، وتحاول تلك الروايات إبراز قِدَم انتشار الإسلام في لامو، والدور المهم الذي أسهم به المهاجرون العرب الذين كان بعضهم من الأشراف من نسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم[٦]، كما تُبرز هذه الروايات سعي أبناء كل

أخشابها، كما أنها الأقرب للمسافات التي حددتها المصادر. انظر على سبيل المثال: المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، حققه محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ط٤، ٢٠٠١، ص٥٢٦؛ جيان، مرجع سابق، ص١٦٤؛ ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليقات وحواشي شكيب أرسلان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٧٣، المجلد الثاني، (ج٣، ص١٤٢)؛ إمباي طاهر، مرجع سابق، ص٢٤١؛ محمد محمود الحويري، ساحل شرق إفريقيا منذ فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص٢٤.

ويرجح ستيفان برادينز، الذي قام بحفائر في موقع ديمبيني، أن أوصاف «قنبلو» تنطبق على مدينة ديمبيني في جزيرة مايوت نتيجة مساحتها الكبيرة، وكثرة وتنوع السلع التي اكتشفت في موقع هذه المدينة، فضلاً عن تنوع مصادرها، وهو ما يؤكد مكانة تلك المدينة ليس في مايوت أو جزر القمر فحسب بل في تاريخ غرب المحيط الهندي والساحل السواحيلي.

Pradines, Stйphane: Dembйni, Mayotte (976) - Archйologie Swahilie dans un dйpartement Franзais, Nyame Akuma, No.77, June 2012, p.71.

(١) المسعودي، مصدر سابق، (ج١، ص٨٤-٨٦)، (ج٢، ص١٤)؛ البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣، (ج١، ص١٩٨، ٢٢٩، ٣٢٠).

(٢) المسالك والممالك، (ج١، ص١٩٨، ٢٢٩، ٣٢٠).

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص (٤٩، ٥٨-٥٩).

(٤) بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨، ص١٦؛ محمد جاب الله، مرجع سابق، ص٩.

(٥) جي كيركمان، مرجع سابق، ص (٢٧٦، ٢٧٧).

(٦) Martin, B. G.: Islam in Lamu: The sacred meadows: A structural analysis of religious symbolism in an East African town. By Abdul Hamid M. el-Zein: Northwestern University Press, 1974. The Journal of African History, Vol.17, Issue. 3, July 1976, pp.452-454.

منطقة لإثبات قِدَم انتشار الإسلام بينهم.

فالروايـــة الشـــفهية في لامو؛ تشـــير إلى وصول حمـــزة بن عبد الملك بـــن مروان إلى ســـاحل شـــرقي إفريقيا على المحيط الهندي في عهد والده؛ بهدف نشـــر الإســـلام، وبسط نفوذ الدولـــة الأموية؛ حيث كان عبد الملك بن مروان يطمع في تأسيس مملكة جديدة؛ ولذلك جاء بالسوريين الذين بنوا مدن بات، ومالندي، وزنجبار، وممبســـة، ولامو، وكلوة[١]. وفي رواية أخرى أن حمزة خرج من تلقاء نفســـه قاصداً تلـــك المنطقة، وأنه وصل حتـــى أرخبيل لامو واستقر في منطقة كيوايوا Kiwayua الواقعة شمال بات.

وهناك روايةٌ أخرى؛ تشير إلى نشر الإسلام في الأرخبيل بواســـطة مهاجرين شيرازيين في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[٢].

- بيان أخطاء هذه الروايات:

والمفارقة العجيبة هي وقوع هذه الروايات في أخطاء متشابهة، فإذا كانت الرواية الخاصة بانتشار الإســـلام في جزر القمر قد تضمنت الحديث عن شخصية من نسج الخيال لا وجود لها أسهمت في نشر الإســـلام وهي شخصية محمد بن عثمان بن عفان؛ فإن الرواية الشفهية لانتشـــار الإســـلام في أرخبيل لامو تضمنت الحديث عن شـــخصية أخرى من نسج الخيال أيضاً وهي شـــخصية حمزة بن عبد الملك بن مروان، فالمشـــهور في المصـــادر المتاحة أن الخليفـــة عبد الملك بن مروان أنجب كثيراً من البنين لم يكن بينهم من يحمل اسم حمزة[٣].

كما أن هـــذه الروايات لا نجد لها ســـنداً في المصادر التاريخيـــة المتداولة، ولذا تبقى محل شك كبير، وتبرهن فقط على ظاهرة قِدَم الإسلام وانتشـــاره على أيدي العرب القادمين من شـــبه الجزيرة العربية، وهنـــا تبرز أهمية المصادر المادية، وبشكلٍ خاص تقارير الحفائر الأثرية في كشـــف الكثير من الغموض وســـد العجز فيما يتعلق بقضية انتشـــار الإسلام في مدن ساحل شرقي إفريقيا وجزره.

ب- الحفائر الأثرية تثبت وصول الإسلام مبكراً إلى أرخبيل لامو:

فنتيجـــةً لشـــح المعلومات فـــي المصادر المدوّنـــة؛ أجرى بعض علمـــاء الآثار الغربيين عـــدداً من الحفائر الأثرية فـــي بعض المواقع بجزر لامـــو لاستكشـــاف تاريخ تلـــك الجزر وحضارتهـــا[٤]. وتُعـــدّ الحفائر التـــي قام بها جيمـــس كيركمان James kirkman ســـنة ١٩٥٠م مـــن أهم الحفائر التي قدّمت معلومات غاية في الأهمية حول تاريخ انتشـــار الإسلام فـــي لامو؛ فقد أجرى حفائـــره في موقع تاكوا Takwa بجزيرة مانـــدا Manda، وركز على موقع المســـجد في تلـــك الجزيـــرة، أعقبها تحقيقات أثرية في ذات الموقع قام بها توماس ويلســـون Thomas Wilson عـــام ١٩٧٧م، والذي انتهى إلى وجود اســـتقرار سكاني لعدد كبير من المســـلمين في ذلك الموقع؛ دل على ذلك العثور على (١٤٩) بيتاً، بُنيت من المرجان

(١) جي كيركمان، مرجع سابق، ص٢٧٧.

(٢) Prins, A. H.: The Swahili-Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast (Arabs, Shirazi and Swahili), Routledge, New York, 2017, Part XII: East Central Africa, p.67; Ingrams, W.H.: Zanzibar Its history and Its people, Frankas and Co. LTD, 1967, p.74.
- محمد جاب الله، مرجع سابق، ص١١.

(٣) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، راجعه وضبط أعلامه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨، ص٨٩.

(٤) للمزيد حول هذه الحفائر انظر: محمد جاب الله، مرجع سابق، ص (٣-٥).

البحـــري في تاكوا[١]؛ وهذا يبرهن على أن مثل هذه المواقع لم تكـــن مجرد محطات ترانزيت للتجارة.

وفي الإطار نفســـه؛ تأتي جهـــود هورتون Horton الذي أجرى بعض الحفائر في موقع شانجا Shanga في جزيرة لامو خلال الفترة ما بين عامـــي ١٩٨١م، ١٩٨٤م، واهتم هورتون بشكل خاص بأصول انتشار الإسلام في أرخبيل لامو[٢].

لقد أثبتت تقاريـــر الحفائر الأثرية وصول الإســـلام مبكراً إلى أرخبيل لامو؛ ودليل ذلك العثور على بقايا مسجد في شانجا يعود تاريخه للقـــرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد[٣]، وهذا المسجد كان يُعتقد أنه الأقدم في تاريخ إفريقيا جنوب الصحـــراء عموماً، إلى أن جاءت تقارير الحفائر بجزر القمر لتثبت أن مسجدها الذي بُني في الربع الأخيـــر من القرن الأول للهجرة هو الأقدم[٤]. وتبرهـــن تقارير الحفائر الأثرية على وجود أكثر من مسجد في موقع شانجا؛ إذ عُثر على آثار لثلاثة مســـاجد في هذا الموقع، كان أقدمها هو المســـجد المذكور الذي يرجع للقرن الثاني للهجرة[٥]. كما عُثر على مســـجد آخر فـــي رأس مكومبو Ras Mkumbu في جزيـــرة بيمبا Pemba يرجـــع تاريخه للقرن الرابع الهجري/ العاشـــر الميـــلادي[٦]. وعُثر على آثار أربعة مســـاجد تعود للقـــرن الثامن للهجرة في موقع «جومبـــا لا متوانا» Jumba La Mtwana الواقـــع بالقـــرب مـــن خـــور متوابا Mtwapa في مقاطعة كيليفي شـــمال ممبسة[٧].

ومن خلال هـــذه الاكتشـــافات؛ يُرجَّح أن الإسلام وصل أولاً إلى جزر القمر ثم إلى لامو، ثم انتقل منها إلى غيرها من مناطق الســـاحل الشـــرقي لإفريقيا[٨]. كما أن هذه الشـــواهد الأثريـــة تُعدّ دليـــلاً واضحاً على مـــا خلّفته الهجرات العربية إلى منطقة ســـاحل شـــرقي إفريقيـــا من آثـــار حضاريـــة وثقافية، فبعض العرب هاجروا هجرةً طواعية من بلاد الشـــام إلى تلك المنطقة، بالإضافة إلى بعض الهجرات الأخرى التي اضطرت للهجرة من شبه الجزيرة العربيـــة والخليج العربي إلى تلك الجهات على إثر الأوضاع السياســـية في الدولـــة الأموية، وفي أثر التجار والمهاجريـــن الأوائل اندفعت جماعات من السُّنّة، والشيعة، والخوارج، فراراً من بطـــش الدولة الأموية. وقـــد نجحت تلك

(١) Wilson, Thomas. H., Spatial analysis and settlement patterns on the East African coast, In: Allen, J. de V. and Wilson, Thomas. H. (editors): From Zinj to Zanzibar: studies in history, trade and society on the Eastern Coast of Africa, In honour of James Kirkman on the occasion of his seventy-fifth birthday, Paideuma Mitteilungen zur Kulturkunde, Vol.28, 1982, pp.201, 203.

(٢) Wynne-Jones& Fleisher, J.: Fifty years in the archaeology of the Eastern African Coast: a methodological history, Azania: Archaeological Research in Africa, Vol. 50, No.4, 2015, pp.526-528.

(٣) Pawlowicz, M. C.: Finding their place in the Swahili world: an archaeological exploration of southern Tanzania, PhD, University of Virginia, 2011, p.17.

(٤) Moustakim, Ibrahim and Chami, Felix: Op.cit, pp.10, 14.

(٥) Wilson, Thomas. H.: Op.cit, p.205.

(6) Pawlowicz, M. C., Op., Cit., p.17.
– جي كيركمان، مرجع سابق، ص٢٨٠.

(٧) Murathe, Eunice: Jumba La Mtwana harbours secret of bygone Swahili era, Nation, Tuesday, April 23, 2019 — updated on June 29, 2020; Wilson, Thomas. H., Spatial analysis, p.205.

(٨) محمد جاب الله، مرجع سابق، ص١٠.

الهجرات تدريجياً في بسط نفوذها على أجزاء من ساحل إفريقيا الشـــرقي، وكانت لامو هي أولى المناطق التي قصدها المهاجرون[١].

ويظهر مما تقدّم أن الهجرات العربية التي تحدثت عنها المصادر الإســـلامية قد أسهمت بدورٍ كبير في تأســـيس بعض المدن والإمارات الإسلامية على ساحل إفريقيا الشرقي. وتتضح أهميـــة المصادر الماديـــة المتمثلة في تقارير الحفائـــر الأثرية في توضيح أماكن اســـتقرار المهاجرين العرب بدقـــة، كما تضع بين أيدينا معطيات فـــي غاية الأهمية حول المســـاجد التي أسســـها هؤلاء المهاجـــرون، ومواقع تلك المســـاجد، وتواريخ إنشائها، وهي معطيات لا تُفصح عنها المصادر التاريخية.

ثانياً: انتشار الإسلام في غربي إفريقيا (السودان الغربي):

١) انتشار الإسلام في مدينة أودغست:

أَوْدَغَسْـــت Awdaghust مدينـــة قديمة تقع فـــي جنوب غرب الصحـــراء الكبرى، بين بلاد المغرب وبلاد الســـودان فيما يُعرف اليوم بموريتانيا، إلى الجنوب من مدينة سجلماســـة، والمســـافة بين سجلماســـة وأودغســـت تبلغ شـــهرين. وتأتي أهمية هذه المدينة بالنســـبة لممالك الســـودان الغربي أن موقعها كان على الحدود الشـــمالية لمملكة غانـــة[٢] القديمة، وقُدّرت المســـافة بينهما بمسيرة خمسة عشر يومـــاً[٣]، أي ما يعادل ٦٦٧ كيلو متراً تقريباً[٤]. وحدّد صاحب الاســـتبصار المسافة بين غانة وأودغست بعشرين مرحلة[٥]، أي ما يعادل ٨٩٠ كيلو متراً تقريباً[٦].

أ- روايات المصادر المدونة عن انتشار الإسلام في أودغست:

وقد وصفت المصادر أودغســـت بأنها وادٍ عامر بين جبلين[٧]؛ وهذا جعل ابن حوقل الذي زارها في عـــام ٣٤٠هـــ/٩٥١م يصفها بأنها «أشـــبه بلاد الله بمكة المكرمة»[٨]. والســـؤال الذي يفرض نفســـه: ما الذي قدّمته المصادر الإســـلامية تاريخيـــةً وجغرافيةً عن انتشـــار الإسلام في أودغست؟

وردت رواية تتعلق بأودغســـت خلال القرن الثالث للهجرة، أوردها اليعقوبي (المتوفى عام

---

(١) يوسف فضل حسن، بعض مظاهر التواصل الإفريقي، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠٦، ع٣٥، ص٢٣؛ محمد جاب الله، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) غَانَة (بفتح الغين المعجمة، وألف، ثم نون مفتوحة، وهاء في آخرها): هي بلد بأرض السودان، وليست هي غانا الحديثة التي تحمل هذا الاسم حالياً، إذ إن غانا الحديثة كانت تُسمّى «ساحل الذهب»، ثم تسمّت باسم «غانا» تيمّناً؛ فهي تقع على بعد نحو ألف ميل جنوبي غانة القديمة. أما موقع غانة القديمة فهو محل خلاف، وقد ورد في المصادر أنها مدينتان على ضفتي نيلها، إحداهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار، انظر: البكري، المغرب، ص١٧٥.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٣٨، ص٩٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، المجلد الأول، ص (٢٧٧، ٢٧٨).

(٤) وهذا على اعتبار أن المرحلة تساوي ٤٤,٥٢٠ كيلو متراً بالتقدير المعاصر، انظر: مركز رواد للترجمة: موسوعة المصطلحات الإسلامية، مؤسسة رواد للترجمة، الرياض، ١٤٤١هـ، (ج٦، ص٦٧٦).

(٥) مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، ١٩٨٣، ص٢١٦.

(٦) مركز رواد للترجمة، مرجع سابق، ص٦٧٦.

(٧) اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص١٩٩؛ ابن حوقل، مصدر سابق، ص٩٢؛ حسين مراد، دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى الخامس للهجرة/ القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٤٦، ٢٠٠٨، ص (١٠٨، ١٠٩).

(٨) صورة الأرض، ص٩٢.

٢٨٤هـ/٨٩٧م) ذكر فيها: «أن ملك أودغست لا دين له ولا شريعة»[١]. ثم تأتي إشارة المهلبي- الذي عاش في بلاط الفاطميين- خلال القرن الرابع للهجرة، فقد ألّف كتاباً في الجغرافيا بين سنتي (٣٦٦-٣٨٥هـ/٩٧٥-٩٩٥م)، وللأسف فُقد هذا الكتاب؛ لكن لحسن الحظ فإن ياقوت الحموي (المتوفى عام ٦٢٦هـ/١٢٢٦م) نقل عنه فقرة تتعلق بمدينة أودغست، نصها: «قال المهلبي: أودغست مدينة بين جبلين في قلب البر الجنوبي، والسفر إليها متصل من كل بلد، وأهلها مسلمون، يقرؤون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وجماعات»[٢].

كما ينقل لنا ياقوت رواية أخرى عن المهلبي، يشير فيها إلى أن أهل أودغست أسلموا على يدي عبيد الله المهدي الفاطمي[٣] (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩١٠-٩٣٤م). هذا على الرغم من أن الإسلام بدأ يتسرب إلى الصحراء وأودغست مع حملة عقبة بن نافع عام ٦٢هـ/٦٨١م. وفي العقد الثاني من القرن الثاني الهجري أثمرت حملات فتح الصحراء في دفع حركة انتشار الإسلام إلى الأمام بفضل جهود الدعاة والتجار المسلمين في الدعوة لهذا الدين الحنيف بين السكان وحكامهم، فقد انتشر الإسلام في صفوف الطبقة الحاكمة في أودغست، فالحاكم الأودغستي تيلوتان بن تلاكاكين (١٥٧-٢٢٢هـ/٧٧٣-٨٣٦م) كان على الإسلام، كما كان متحمساً لنشره بين قومه وبين السودانيين المجاورين له من ناحية الجنوب[٤]، وسار كل حكام أودغست على هذه السياسة في نشر الإسلام[٥]. ولذلك لا مجال لقبول رواية اليعقوبي أو المهلبي الذي نفى مزاعمه بنفسه حين قال: «وأهلها مسلمون، يقرؤون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وجماعات»[٦]، فليس من المعقول أن تكون الدعوة الإسلامية قد ظهرت في أودغست في ذلك الوقت المتأخر وبعد فترة قصيرة أصبحت هذه المدينة تضم المساجد والجوامع التي ضمت العلماء والفقهاء[٧]! الراجح أن المهلبي قد ساق هذه الرواية متأثراً بنزعته الشيعية؛ فقد كان فاطمياً[٨].

وعموماً؛ فإنه خلال القرن الخامس للهجرة يبرهن البكري على الانتشار الواسع للإسلام، وانتشار مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد ورسوخ الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت بها مساجد كثيرة آهلة وفي جميعها المعلمون للقرآن[٩].

---

(١) البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١، ص١٩٩.

(٢) معجم البلدان، المجلد الأول، ص (٢٧٧، ٢٧٨)؛ حسين مراد، الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن ٢-٦ هـ/ ٨-١٢م، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ٢٠٠٦، ص (٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) ياقوت، مصدر سابق، (ج١، ص٢٧٨).

(٤) Lugard, L: A Tropical dependency, an outline of African history of Western Sudan with an account of Modern Settlement, London, 1905, p.107.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣، (ج٢، ص٣٨٤)؛ حسين مراد، أودغست، ص (١١٢، ١١٣).

(٦) ابن الخطيب، مصدر سابق، (ج٢، ص٣٨٤).

(٧) إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠، ص٤٤.

(٨) الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كتاب عالم المعرفة، عدد٣١٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ٢٠٠٥، ص١٧٠؛ حسين مراد، دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى الخامس للهجرة/ القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٤٦، ٢٠٠٨، ص١١٣.

(٩) المسالك والممالك، (ج٢، ص٣٤٤).

ب- الحفائر الأثرية تثبت قِدَم انتشار الإسلام في مدينة أودغست:

وقد أسفرت الحفائر الأثرية في مدينة أودغست عن الكشف عن أحد هذه المساجد، والذي بُني وفقاً للتأثيرات المغربية الأندلسية، ويتألف هذا المسجد من قاعة الصلاة والصحن ومحراب رئيس جميل يتجه ناحية الجنوب الشرقي. كما تم الكشف عن محرابٍ ثانٍ في الحائط الذي يفصل الصحن عن قاعة الصلاة، والراجح أن المحراب الثاني هذا كان يساعد في تحديد اتجاه القبلة لمن يؤدون الصلاة في الصحن. كما تم العثور على مُصلّى للعيدين الإسلاميين ليجمع مسلمي المدينة للصلاة في هذين العيدين، نظراً لتعذر جمعهم في داخل المسجد الجامع لضيقه، وقد تم الاستدلال على هذا المصلى بفضل العثور على مكان المحراب[١]. ويرجع تاريخ هذا المسجد إلى القرن الثاني للهجرة[٢]؛ ساعد على ذلك الصلات التجارية النشطة لأودغست مع بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن المذكور.

وهذا يبين أهمية تقارير الحفائر الأثرية من خلال التأكيد على قِدَم انتشار الإسلام في أودغست، فآثار المسجد المكتشف هناك تؤكد قِدَم انتشار الإسلام ورسوخه بين أهلها.

٢) انتشار الإسلام في مملكة غانة:

أ- المغالطات التي أثيرت حول تاريخ إسلام أهل غانة:

تُعدّ قضية انتشار الإسلام في مملكة غانة أحد أهم القضايا التي تبرهن على أهمية المصادر المادية في الحديث عن انتشار الإسلام في الممالك الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى، ومرد ذلك إلى أن إسلام أهل غانة أُثيرت حوله الكثير من المغالطات والروايات غير الصحيحة، منها على سبيل المثال: ما ذهب إليه الكثيرون[٣] بأن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام في تلك المملكة خلال القرن الخامس الهجرة، وأنهم أسقطوا مملكة غانة الوثنية[٤]، بل يذهب أحد الباحثين إلى أن

(١) Robert, D.S: Les Fouilles de Tegdaoust, Journal of African History, Vol.11, No.4, 1970, pp.473, 481, 482.

(٢) حسين مراد، دولة أودغست، ص١٢٥.

(٣) انظر على سبيل المثال:
- Cuoq, Joseph: Histoire de l›islamisation de l›Afrique de l›Ouest, Geuthner, Paris, 1984, pp.56, 60;
– الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، ضمن كتاب: (تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٤، ص٩٤؛ عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ص (٦٣-٦٦)؛ محمد الفاسي وإيفان هربك، مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا، تاريخ إفريقيا العام، اليونسكو، ط٢، ١٩٩٧، (ج٣، ص٩٦)؛ محمد فاضل علي باري، سعيد إبراهيم كريديه، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ص٧١؛ حمد الجهيمي، دراسات في تاريخ مملكة غانا فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين: مرحلة انتشار الإسلام، مجلس الثقافة العام، ليبيا، ٢٠٠٨، ص (١١٧، ١١٨)؛ أنس بوسلام، إمبراطورية غانا: دراسة في التاريخ السياسي وبنية الحكم والتنظيمات، مجلة مدارات تاريخية، المجلد الأول، العدد الرابع، ديسمبر ٢٠١٩، ص١٧٣؛ صلاح بن محمد الحسيني، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، العدد ٣٥، الإصدار الثاني، أكتوبر ١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م، ص٤٠٧٠.

(٤) شكك بعض الباحثين في خبر الغزو المرابطي لمملكة غانة، وقدّموا أدلة قاطعة على عدم صدق هذا الخبر، انظر على سبيل المثال:
Robert, Denise; Robert, S.; Devisse, -Jean: Tegdaoust I: Researches sur Aoudaghost, Arts ET Mŏtiers Graphiques, Paris, 1970, pp.24, 25.
– أحمد الشكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية: هل حقاً قام المرابطون بغزو غانة، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ١٩٩٧، ص٧٣، وما بعدها.

أبا بكر بن عمر القائد المرابطي استولى على كومبي صالح عاصمة غانة في عام ١٠٧٦م، «وذبح الكثير من أهلها، ونشر الإسلام في كل البلاد»[١]!!.

إن غرض البعض من إثارة هذه القضية الخاصة بالغزو المرابطي لغانة ونشرهم الإسلام فيها هو التشكيك في مسألة انتشار الإسلام سلميّاً في غانة، من خلال إثبات نشر المرابطين للإسلام بحد السيف وفرضه على رعايا مملكة غانة؛ ولذلك فإن هؤلاء تشبثوا برواية الزهري (كان حيّاً عام ٥٣٢هـ/١١٣٦م) حول إسلام أهل غانة، فقد حدد وقوع هذا الحدث على إثر الغزو المرابطي عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م[٢]. ومن أبرز من تشبثوا بهذا الخبر تاديوز ليفيتسكي Lewicki Tadeusz، الذي استند لنص الزهري مؤكداً أن الإسلام انتشر في غانة خلال النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة[٣].

والأخذ بهذا الرأي يجانب الصواب تماماً؛ فانتشار الإسلام في مملكة غانة يرجع إلى الصلات التي ربطتها ببلاد المغرب الإسلامي، ولكن نتيجة هذا التسرب السلمي للإسلام؛ فإن قضية انتشار الإسلام في غانة وفي غيرها من الوحدات السياسية ببلاد السودان من القضايا غير المحددة بتاريخ مؤكد، غير أن وصول الإسلام إلى تلك المنطقة قديم، ويسوق لنا البكري قصة ذلك الجيش الذي أرسله بنو أمية إلى تلك الجهات ونشره الإسلام بين أهل غانة، وأن بهذه البلاد جماعة من ذرية ذلك الجيش[٤]. ولا نعتقد في صحة هذا الخبر الذي جاء به البكري، بل إن ما يشير إلى انتشار الإسلام في مملكة غانة هو توقير ملكها المدعو «بسي» (الذي توفي عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م) للإسلام والمسلمين، وكذلك فعل وريثه في الحكم وابن أخته المدعو «تنكامنين»، حيث كان يعتمد في شؤون حكمه على المسلمين، وهو ما أكده البكري نفسه[٥].

ومن أدلة انتشار الإسلام في مملكة غانة، بفضل الصلات التجارية مع بلاد المغرب الإسلامي، ما ذكره البكري[٦] أيضاً ونقلته عنه بعض المصادر الإسلامية[٧] عن وجود اثنين

(١) أحمد الحفناوي، من تاريخ دول الإسلام: دولة غانا الإفريقية، مجلة الأديب، العدد١-٢، يناير ١٩٨١، ص (٢٨، ٢٩).
هذا الكلام ينطوي على كثير من المغالطات؛ فأبو بكر بن عمر تحرك من المغرب الأقصى نحو الصحراء سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م على إثر سماعه باختلال أمر الصحراء وقيام جدالة ضد لمتونة؛ من ثَمّ كان توجهه نحو الصحراء اضطرارياً بغرض تهدئة القبائل الصنهاجية، ولا تعكس تلك الوجهة بأي حال اهتماماً ببلاد السودان. انظر للمزيد: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، (ج٤، ص٢٠)؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص (١٣٤، ١٣٥)؛ أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩، ص١٣٧ وما بعدها.

(٢) كتاب الجغرافية، حققه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص (١٢٥، ١٢٦).

(٣) Lewicki, Tadeusz: Les Origines et L'islamisation de la Ville de Tвdmakka d'aprиs les Sources Arabes, Outre-Mers Revue d'Histoire, Vol.242-243, Annйe 1979, p.166.

(٤) المسالك والممالك، (ج٢، ص٨٧٧).

(٥) المصدر السابق، نفس الجزء، ص٨٧١؛ محمد جاب الله علي، مدينة كومبي صالح، ص١٧٦؛ بطل شعبان محمد، كتاب «تاريخ الفتاش» وأهميته في التأريخ للحياة السياسية لمملكة غانة الإسلامية، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ، مصر، العدد ٢٩، يونيو ٢٠٢٣، ص٤٩٥.

(٦) المسالك والممالك، (ج٢، ص٨٧١).

(٧) أبو الفداء، تقويم البلدان، نشره ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠، ص١٥٧؛ الحميري،

من الأحياء في مدينة كومبي صالح (عاصمة غانة): حي إسلامي، والآخر وثني؛ وهذا يعني أن هناك قسماً إسلامياً بعاصمة غانة رغم وثنية ملكها ظل ينمو ويعمر بسكانه المسلمين عبر فترة زمنية طويلة، حتى صار هذا القسم يمثل شطر عاصمة مملكة غانة[١]، هذا فضلاً عن تشييد ملك غانة الوثني آنذاك لمسجد في الحي الوثني يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين، وكذلك مَن وظّفهم الملك من المسلمين للعمل في بلاطه[٢].

ب- الحفائر الأثرية تثبت انتشار الإسلام ورسوخ مكانته قديماً بين سكان غانة:

وتقدّم تقارير الحفائر الأثرية ما يثبت انتشار الإسلام ورسوخ مكانته بين السكان منذ القِدَم، ويؤكد أيضاً صدق رواية البكري وقيمة ما كتبه حول تاريخ مملكة غانة؛ فقد عُثر على آثار مسجد في موقع كومبي صالح، يرجع تاريخ وجوده للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[٣]. وهذا يؤكد قِدَم انتشار الإسلام، وأنه انتشر في غانة منذ القرن الثاني للهجرة نتيجةً للصلات مع بلاد المغرب الإسلامي، ومع ازدياد عدد المسلمين انتشرت المساجد خلال القرون التالية، بدليل ما ذكره البكري عن وجود اثني عشر مسجداً في الحي الإسلامي من العاصمة كومبي صالح[٤].

وتُقدّم المصادر المادية أدلة أخرى على رسوخ الإسلام وثقافته بين سكان غانة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة، فقد عُثر على عدد من شواهد القبور في موقع كومبي صالح عاصمة غانة، وقد قسّم الأثريون هذه الشواهد إلى قسمين؛ الأول: يبلغ عددها نحو ثلاثة وخمسين شاهداً لقبور كانت تحمل في نقوشها آيات قرآنية وأسماءً إسلامية. والقسم الثاني من تلك الشواهد: يبلغ نحو أربعة وعشرين شاهداً لا تحمل سوى زخارف هندسية إلى جانب الأسماء، وتحمل تلك الشواهد تواريخ مختلفة يرجع أقدمها لعام ٤٢٨هـ/١٠٣٧م[٥].

يتضح مما سبق؛ إسلام رعايا غانة دون ملوكها، وهذه الصورة التي توضح حالة الإسلام في غانة رسمها البكري في حدود عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، ويعني ذلك أنه حتى هذا التاريخ لم يصبح الإسلام ديناً رسمياً في غانة يعتنقه ملوكها، ونترك البكري وصورته لغانة التي تغيرت في عهد الإدريسي، فقد اعتنق الجميع حكاماً ومحكومين الإسلام، وانفعالاً بهذه العقيدة الجديدة ادعى ملك غانة المسلم وجود صلة نسب بآل البيت، وبخاصةٍ البيت

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص (٤٢٥-٤٢٦).

(١) إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص (٣١-٣٣).

(٢) المرجع السابق، ص (٤٣-٤٥)؛ حسين مراد، الصلات، ص٤٠٠؛ محمد جاب الله، مدينة كومبي صالح، ص (١٧٦، ١٧٧).

(٣) Capel, Chloй; Zazzo, Antoine; Polet, Jean; Saliиge, Jean-Franзois: The end of a Hundred-Year-old archaeological riddle: first dating of the columns tomb of Kumbi Saleh (Mauritania) Radiocarbon, University of Arizona, Vol.57, No.1, 2015, pp.67, 72; Constant, Hamиs and Cuoq, Joseph: Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines a la fin du XVIe siиcle, Archives de sciences sociales des religions, n°67/2, 1989. p.255.
انظر أيضاً: أحمد الشكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، ص٢٥.

(٤) المسالك والممالك، (ج٢، ص٨٧١).

(٥) Farias Moraes, P. F.,: Arabic medieval inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy, chronicles and Songhay-Tuareg history, Published for British Academy, Oxford University Press, 2003, p.142.
- محمد جاب الله، مدينة كومبي صالح، ص (١٧٦، ١٧٧).

العلـــوى، مع تبعية للخلافة العباســـية. ونرجّح في ضوء ذلك أن إســـلام ملك غانة قد تم في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[١].

٣) انتشار الإسلام في مملكة تادمكة:

وهـــي إحدى أهـــم الممالـــك التي ظهرت جنوب الصحراء الكبرى، وتحديداً على الحافة الجنوبية لتلـــك الصحراء علـــى أطراف بلاد السودان الغربي وسط مرتفعات إقليم «أضغاغ» (أدرار إيفوغاس) شمال إقليم أزواد بجمهورية مالي حالياً[٢].

أ- المصادر المدونة وتاريخ الإسلام في تادمكة:

وبالنظر في المصادر الإســـلامية؛ نجد أن الإسلام بدأ ينتشر في تادمكة، وكثير من ممالك بلاد الســـودان الغربي ومدنهـــا، نتيجة وجود تجار مسلمين استقروا بها خلال القرون الأولى للهجرة، إذ نتج عن الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب تدفق الإسلام إلى الصحراء الغربية[٣]، خاصةً بين قبائل صنهاجة الصحراء[٤].

وبعد انتهـــاء الفتوحات الإســـلامية لبلاد المغرب اســـتمر التواصل بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، وتمكن التجار المســـلمون من التوغل في مدن المغرب المختلفة إلى المراكز التجارية الســـودانية، وساعد هذا التوغل على تنشـــيط التجارة عبر الصحـــراء والاختلاط بسكان الســـودان والتأثير فيهم؛ مما أسهم في انتشار الإسلام بينهم[٥].

ب- الحفائر الأثرية تثبت قِدَم انتشار الإسلام بتادمكة وما حولها:

وتأتي شـــواهد القبور المكتشفة في موقع السوق بتادمكة خلال القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، لتدلل على تنامي انتشار الإسلام في تادمكة، إذ اكتُشف عدد من شواهد القبور والنقوش الكتابية في موقع وادي السوق تحمل نقوشـــاً بعضها باللغة العربية، والأخرى بلغة التيفيناغ التي تستخدمها قبائل الطوارق[٦]، ترجع لبدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد[٧].

وتدعم تلك الشـــواهد ما أوردته المصادر المدوّنة عن قِدَم انتشار الإسلام في الصحراء

(١) الإدريسي، مصدر سابق، ص٢٣؛ حسين مراد، الصلات، ص٤٠١.

(٢) مجهول، خبر السوق، تقديم وتعليق عبد الحميد الهرامة، منشورات مركز جهاد الليبيين، ليبيا، ٢٠٠٣، ص٢١.

(٣) حسين مراد، الصلات، ص٥.

(٤) انظر: إيفان هربك، وجان دُفيس: المرابطون، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ط٢، إشراف محمد الفاسي وإيفان هربك، اليونسكو، ١٩٩٧، ص٣٧٤.

(٥) صباح إبراهيم الشيخلي، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن ٥هـ/١١م، منشورات معهد الدراسات والبحوث العربية، بغداد، ١٩٨٤، ص٥٢.

(٦) Nixon, Sam: Tadmekka Archйologie d'une Ville Caravaniиre des Premiers Temps du Commerce Transsaharien, Histoire et archйologie du Sahel ancien: nouveaux regards, nouveaux chantiers, Vol.4, 2013, p.12.

(٧) Farias, Paulo, Fernando de Moraes: Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions, New (Previously Unpublished) Series, In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka an Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017, p.299; Farias, Paulo Fernando de Moraes: The Oldest Extant Writing of West Africa: Medieval Epigraphs from Issuk, Saney and Egef-n-Tawaqqast (Mali), Journal des Africanistes, Vol.60, Numйro.2, (Anniе 1990), pp.94-96; Farias, Paulo Fernando de Moraes: Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy, Chronicles, and Songhay-Tuareg History, Published for the British Academy by Oxford University Press, New York, 2003, p.89.

وبـــلاد الســـودان، وأن الإســـلام- وفقاً لأقدم الشواهد- كان موجوداً قبل عام ٤٠١هـ/١٠١٠م.

لذا؛ فلا نتفق مع نص الزهري (كان حيّاً عام ٥٣٢هـ/١١٣٦م) الذي حدد تاريخ إســـلام أهل تادمكة بعد سبع سنوات من إسلام أهل مملكة غانة عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، أي أن إسلام تادمكة وفقاً للزهري يرجع إلى عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م[١].

٤) انتشـار الإسلام في مدينة جاو عاصمة مملكة صُنغي:

تقع مدينة جاو علـــى المنحنى الكبير لنهر النيجر (فـــي جمهورية مالي حالياً)، أسســـها الأجـــداد الأوائـــل لقبيلة الصنغـــي في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد، وأصبحت خلال القرنين التاســـع والعاشـــر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، عاصمةً لمملكة صنغي، إحدى الممالك الإســـلامية الكبرى في السودان الغربي[٢].

وامتـــازت جاو بوقوعها عنـــد ملتقى طرق التجـــارة البرية والنهرية، فغدت من أهم مراكز التجارة عبر الصحراء التي ربطت بين الشمال الإفريقي وممالك الســـودان الغربي. كما كانت محطةً مهمـــة من محطات الطريـــق التجاري النهري الأشـــهر فـــي بلاد الســـودان الغربي، وهو طريق نهر النيجـــر، والذي يصل المدينة بالمحطـــات المهمة الأخرى فـــي تلك البلاد، ومنها تنبكت وجني[٣].

أ- المصـادر المدونـة تؤكـد قِدَم انتشـار الإسلام في مملكة صُنغي:

أما فيما يتعلق بانتشـــار الإسلام في جاو؛ فقد انتشـــر الإســـلام في تلك المدينة أيضاً بفضل الصـــلات التجارية مع بـــلاد المغرب الإســـلامي منذ القـــرن الثانـــي للهجرة، فقد كان للتجار المغاربة ســـواءً كانوا من السُّنّة أم الإباضية نشـــاط تجاري عبر الصحراء، وهذا يجعلنا لا نتفق مع ما وصل إليه بعض الباحثين الذين أشـــاروا إلى أن التجار الإباضيين دخلوا إلى الســـودان قبل السُّـــنيين بزمن طويل، وأن أوائل من أســـلموا من الســـودانيين لم يعتنقوا الإســـلام إلا بفضل جهود الدعوة التي قام بها الإباضيون[٤].

والـــرأي الأقرب إلى الصواب هو أن التجار السُّنّيين والتجار الإباضيين أسهموا في التجارة عبر الصحراء خلال القرن الثاني الهجري[٥].

ويعـــود كل مـــا وصلنا حول إســـلام جاو (عاصمـــة مملكة صُنغي) إلـــى القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشـــر والحادي عشر الميلاديين، ففي القـــرن الرابع الهجري يأتي قـــول المهلبي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) الذي أشـــار إلى إعلان الحاكم إسلامه أمام الرعية، الذين اقتدوا به وتبعوه في الإسلام، كما أشار المهلبي

(١) كتاب الجغرافية، ص (١٢٥، ١٢٦)؛ بطل شعبان، جوانب من تاريخ مملكة تادمكة في ضوء نتائج الحفائر الآثارية وشواهد القبور من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس للهجرة ١٩-١٢م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٤٣، الرسالة ٦٠٥، ٢٠٢٢، ص٣٥ وما بعدها.

(٢) Maclean, Rachel, Insoll, Timothy: Archaeology, Luxury and the Exotic: the Examples of Islamic Gao (Mali) and Bahrain, World archaeology, Vol.34, No.3: Luxury Foods, Feb 2003, p.560.

(٣) فارياس، باولو فرناندو: نظام تجارة تادمكة وجاو كاوكاو وكوكيا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طرق التجارة عبر الصحراء مع التركيز على الكتابات المستمدة من الكتابات العربية في العصور الوسطى، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد ١، السنة الثالثة، يناير ١٩٨١، ص٤٠.

(٤) محمد الفاسي وإيفان هربك، مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا، ص٩٠.

(٥) حسين مراد، الصلات، ص٣٧٧.

إلـــى أن الإســـلام كان دين جميـــع الناس في المملكة[١].

إن نص المهلبي هذا يتضارب مع ما أورده السعيدي، الذي يؤكد اعتناق الملك زواكوسي[٢] Zoakosy- الملك الخامس عشـــر من ملوك صنغـــي الملقبيـــن بـ«زوا»- للإســـلام ســـنة ٤٠٠هـــ/١٠١٠م: «... أربعة عشـــر ملكاً ماتوا جميعاً في جاهلية.. والذي أسلم منهم زاكسي يقال له في كلامهم مســـلم دم، ومعناه أســـلم طوعـــاً بلا إكراه»[٣]. وعلـــى الرغم من الفارق الزمني بين رواية المهلبي عن إسلام حاكم جاو ورواية السعيدي؛ فإن رواية الأخير هي الأقرب للصواب؛ فهي أدق فـــي التفاصيل، حيث جاء بها أســـماء من ماتوا فـــي جاهلية من الحكام، بالإضافة إلى اسم أول ملك أسلم[٤].

كمـــا ذكـــر البكـــري (المتوفـــى عـــام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أن مدينة كوكو (جاو) عاصمة صنغـــي «... مدينتان: مدينـــة الملوك ومدينة المســـلمين، وملكهـــم مســـلم، لا يُملّكون غير مسلم»[٥]، وهذا يعني أنه خلال النصف الثاني من القرن الخامس للهجـــرة- أي وقت تأليف البكري لكتابه- أصبـــح لا يحق لأحد من أبناء صنغي أن يكون ملكاً إلا إذا كان مســـلماً، ويُعدّ ذلك الأمر انتصاراً كبيراً للإسلام، ويدل أيضاً على سرعة انتشاره بين أوساط الشعب الصنغي، وهي حقيقة أثبتتها نتائج الحفائر الأثرية التي أزاحت الكثير مـــن الغموض والتضارب اللذَين أحاطا بهذا الموضوع.

ب- الحفائر الأثرية تثبت قِدَم الإسلام في مملكة صنغي:

فقد أُجريت سلســـلة مـــن الحفائر الأثرية فـــي عدة مناطـــق، كان أقدم اكتشـــاف عبارة عن شـــاهد قبر، وترجع فترته الزمنية إلى عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م، ووُجد هذا الأثر شمال مدينة جاو في الصحراء[٦]. وقد حملت هذه الشواهد

(١) ياقوت الحموي، مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٤٩٥.
Hamani, Djibo: L›islam au Soudan Central - Histoire De L›islam Au Niger Du Viie Au Xixe Siиcle, Harmatan Publiи, Paris 2007, pp.37-39.

(٢) كانت أحدث النقوش المؤرخة التي تم إيجادها في منطقة ساني Saney تمثل كتابة ملكية، وقد اكتشفها وصورها للمرة الأولى الأساتذة جون هنويك، و لامب Lamb، وهي تعود إلى ١٤ من ذي الحجة عام ٦٩٨هـ الموافق ١٦ أبريل ١٢٨٠م، وتحمل اسم زوا Zuwa بن أركم، وهي قراءة مختلفة عن جوا Juwa، و جا Ja، و زا Za الموجودة في حوليات ومخطوطات تنبكت. وإلى نفس النتيجة وصل دي مورايس فارياس الذي توصل من خلال دراسته لشواهد القبور في منطقة جاو-ساني في مالي إلى أن لقب حكام صنغي الأوائل هو Zuwa وليس Za. انظر:
Hunwick, John: Arabic medieval inscriptions from Mali, Recent Book, Sudanic Africa, No.15 (2004), p.179; See Also, Wilks, Ivor: Timbuktu and the Songhay empire, Recent Book, Sudanic Africa, No.11, 2000, p.147; Farias, Paolo Fernando de Moraes: Histoire Contre Mиmoire: Epigraphie, Chroniques, Tradition Orale Et Lieux d'oubli Dans le Sahel Malien, Rabat, Universitи Mohammed V, Chaire du Patrimoine Maroco-Africain, 1993, p.18.

(٣) ملوك السودان أهل سُغي وقصصهم وأخبارهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، تحقيق هوداس وبنوا، مطبعة أنجي، باريس، ١٨٩٨، ص٣.
Joseph, Vogel& Jean, Vogel: Encyclopedia of Pre-colonial Africa: archaeology, history, languages, cultures, and environments, Calif Altamira Press, 1997, p.493; Van, Donzel. E. J: Islamic disk reference, New York Academic Publishers, 1994, p.422; Tonkin. T.: Muhammadanism in the Western Sudan, Journal of the Royal African Society, Vol.3, No.10 (Jan, 1904), p.125.

(٤) حسين مراد، الصلات، ص٣٩٥.

(٥) المغرب، ص١٨٣؛ جوزيف. ج، الإســـلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص٨١.

(٦) Conrad, David C.: Empires of medieval West

أسماء الصحابة رضوان الله عليهم[١]، كما عُثر على عدد من شـــواهد القبور في منطقة جاو-ساني Gao-Saney عام (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، وتحديداً في منطقة ســـاني التي تبعد حوالي أربعـــة أميال عـــن مدينة جـــاو، وأمدتنا هذه الشـــواهد بأدلة تثبت قبول السكان المحليين للإســـلام وزمن ذلـــك، وأدلة تخـــص التجارة البينيـــة عبر الصحـــراء. وقد تـــم العثور في ســـاني على مجموعة من شواهد القبور لبعض الملوك يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشـــر الميلادي، وكُتب على أحد هذه الشـــواهد: «هنا يرقد جثمان الملك أبي عبـــد الله محمد، الذي دافع عن دين الله، وهو الآن في رعاية الله ورحمته، وكان ذلك في سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م»[٢].

ومن خلال الشاهد يتأكد لنا تعمق الإسلام فـــي نفوس أهـــل جـــاو حكامـــاً ومحكومين، فصاحب هذا الشـــاهد حمل اســـم رسول الله صلى الله عليه وســـلم تبرُّكاً بـــه وتأكيداً على التمسك بســـنته[٣]. وهناك شـــاهد قبر آخر يؤكد ما ذهبنا إليه، كُتـــب عليه: «... هذا قبر الملـــك الناصر لدين الله، المتـــوكل على الله، أبي بكر بن أبي قحافـــة رحمه الله، توفي ليلة الجمعة، ماضي شـــهر رجب تسعة عشر يوماً سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م»[٤]. وبعد وفاة هذا الحاكم تولـــى بعده حاكم آخر في العام نفســـه، وأخذ اســـم الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبرُّكاً به[٥].

هكذا؛ أثبتت تلك الشواهد قِدَم الإسلام في صنغي، وأثبتـــت أيضاً مدى تفاعل أهل صنغي حكاماً ومحكومين مع الإسلام، وظهر ذلك من خلال اســـتخدامهم للأســـماء العربية، بل إن بعض هذه الشواهد حمل اسم النبي صلى الله عليه وســـلم، وحمل عددٌ منها أسماء الصحابة رضي الله عنهم.

ومن ثَـــمّ؛ فإن تقاريـــر الحفائر في غربي إفريقيا تدحض الآراء التي ربطت بين انتشـــار الإســـلام وضرورة وجود ســـلطة قوية غالبة، وأنه حين تتوافر هذه الســـلطة يبسط الإسلام ســـلطانه، وتُنشـــر بين النـــاس تعاليمه، وتعلو راياتـــه. وحين تغيب مثل هذه الســـلطة يصبح النكوث عن الإســـلام إلى المعتقـــدات الوثنية المحلية هو البديل الأمثل، وفي أحسن الفروض تكون المزاوجة بين الإســـلام وتلك المعتقدات سبيلاً لامتزاج مزعوم يُبقي من الإسلام اسمه، ويمحو معالمه وأثره[٦].

وقد آن لمعتنقـــي هذا الـــرأي أن يُعيدوا

Africa Ghana, Mali, and Songhay, Acid-Free Paper, U.S.A 2005, p.51.

(١) Farias: Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali, pp.14-15.

(٢) Sauvaget . J: Les йpitaphes Royales De Gao, Dans: Al-Andalus Revista De Las Escuelas De Estudios Arabes De Madrid Y Granada, Vol.XIV, Pelayo Instituto Miguel, Asian 1949, pp.123-124; Insoll, Timothy: Iron age Gao: an archaeological contribution, The Journal of African History, No.38, 1997, p.3.

(٣) Jefferson, Murphy, E: History of African civilization, Tomas Y. Crowell Company, New York 1972, p.121; Joseph, Vogel & Jean, Vogel: Op.cit, p.495.

(٤) Sauvaget: Op.cit, p.130; Lange, Dierk: Les Rois De Gao-Sane et Le Almoravides, The Journal of African History, Vol.32, No.2, 1991, p.252.

(٥) Sauvaget: Op.cit, p.135; Lange, Dierk: Op.cit, p.252.

(٦) هارون المهدي ميغا، التاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا تحت مطارق الباحثين، مجلة قراءات إفريقية، لندن: تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١، رمضان ١٤٢٥هـ/ أكتوبر ٢٠٠٤م، ص٩.

النظر في الإشارات المصدرية الخاصة بإسلام الرعية دون الملوك، كما هو الحال بالنسبة لمملكة غانة التي كان بها عدد كثير من المسلمين، فأصبح لهم نصف المدينة، بل واعتمد عليهم ملك غانة في تسيير شؤون مملكته[١]، والأمر نفسه بالنسبة لمدينة جاو، التي رفض أهلها تعيين أي حاكم غير مسلم بعد أن زاد عدد معتنقي الإسلام بها[٢].

خاتمة:

تبيّن مما سبق أهمية المصادر المادية في كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الإسلامي، إذ تُقدّم معطيات يصعب الطعن في مصداقيتها، وبالتالي يمكن المقارنة بين تلك المعطيات الواردة في المصادر المادية، والمعلومات المتداولة في المصادر المدوّنة؛ تاريخيةً وجغرافيةً.

أثبتت الدراسة اعتماداً على المصادر المادية قِدَم انتشار الإسلام في كثيرٍ من المدن والممالك الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى، سواء في شرقي القارة أم في غربيها، فمن خلال تلك المصادر برهنت الدراسة على أن أقدم تاريخ مؤكد حتى الآن لانتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء هو الربع الأخير من القرن الأول للهجرة، حيث انتشر الإسلام في جزر القمر؛ دل على ذلك المسجد المكتشف في تلك الجزر، والذي يعود للتاريخ المذكور. وأكدت الدراسة أن هذا المسجد هو أقدم من مسجد لامو الذي يرجع بناؤه للقرن الثاني للهجرة، وكان شائعاً أن مسجد لامو هو أقدم المساجد في إفريقيا جنوب الصحراء.

وبالنظر في المصادر التاريخية المدوّنة؛ لا نجد فيما يتعلق بانتشار الإسلام في الساحل الشرقي لإفريقيا سوى أخبار بعض الهجرات العربية، التي وصلت تلك الجهات تحت ضغط عدة عوامل كانت العوامل السياسية في مقدمتها، وهذا يجعلنا نرجّح أن الهجرة العمانية التي وصلت لتلك الجهات عام ٨٣هـ هي التي أنشأت المسجد المكتشف في أرخبيل جزر القمر، وهذا يدفعنا لاستبعاد ما ورد في الروايات الشفهية بخصوص وصول وفد قمري في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإسلام هذا الوفد، ثم نشره للإسلام في جزر القمر.

ومن نتائج ذلك أيضاً استبعاد الرأي القائل بانتشار الإسلام في جزر القمر، وفي بعض جهات الساحل الشرقي لإفريقيا، على أيدي الشيرازيين خلال القرن الرابع للهجرة، فانتشار الإسلام أقدم من وصول الشيرازيين؛ على النحو الذي أوضحته الدراسة.

وعلى ذلك؛ يمكن القول بأن المصادر المادية قدّمت أدلةً دامغةً على انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا، وحددت المواطن التي انتشر فيها الدين الحنيف بدقة، والفترات الزمنية لحدوث ذلك، وهي توقيتات توافقت مع تواريخ وصول الهجرات العربية إلى تلك المنطقة.

أما في غربي إفريقيا؛ فقد انتهت الدراسة إلى قِدَم انتشار الإسلام في تلك البلاد أيضاً؛ يؤكد ذلك العثور على بقايا مسجد في موقع كومبي صالح (عاصمة مملكة غانة) يعود للقرن الثالث للهجرة، وهذا يؤكد أهمية ما ورد في المصادر التاريخية والجغرافية، ولاسيما ما أورده البكري بخصوص اعتماد ملك غانة- رغم وثنيته- على المسلمين في إدارة شؤون مملكته، وأنه خصّص لهم حيّاً خاصاً بهم، كان

(١) البكري، المغرب، ص (١٧٤، ١٧٥).

(٢) المصدر السابق، ص١٨٣.

يشـــتمل على اثني عشر مســـجداً، بالإضافة لمسجد أُنشئ في الحي الوثني تقديراً من ملك غانة لمن يفد عليه من التجار المسلمين. وتلك النتيجة في غاية الأهمية، فهي تدحض ما أُثير من مزاعم مجانبة للواقع حول انتشار الإسلام في غانة نتيجةً للحـــروب الجهادية للمرابطين خـــلال النصف الثانـــي من القـــرن الخامس للهجرة.

وفي مملكة تادمكة، واعتماداً على شـــواهد القبور، تبيّن أن انتشـــار الإسلام يرجع للقرن الرابـــع للهجرة على الأقـــل، بدليل العثور على عدد من الشواهد، منها شاهد يرجع تاريخ وفاة صاحبه لبدايات القرن الخامس للهجرة، وهذا يعني أن انتشار الإســـلام يسبق بدايات القرن الخامس، وأنه يرجع للقـــرن الرابع كما ذكرنا، وهذا الاســـتنتاج يدحض ما ذهـــب إليه بعض الباحثين اســـتناداً لما ذكره الجغرافي الزهري بأن انتشـــار الإسلام في تادمكة يرجع لبدايات القرن الســـادس للهجرة، علـــى إثر الحملات الجهادية للمرابطين أيضاً.

وبهذا؛ قدّمت تلك المصـــادر المادية أدلةً موثوقةً حول انتشار الإسلام في مدن وممالك الســـودان الغربي (غربي إفريقيا)، وأمكن من خلالها تحديد فتـــرات وقوع ذلك الحدث بالغ الأهميـــة؛ ومن ثَمّ دحضت بعـــض الآراء التي حاولت التشكيك في الانتشار السلمي للإسلام في مملكة غانة، وفـــي تادمكة، كما أنها أثبتت قِدَم انتشـــار الإســـلام في ممالك الســـودان الغربي، على الرغم من مساعي بعض الباحثين الأوروبيين لتأكيد تأخر انتشار الإسلام في تلك الممالك.

كمـــا تبيّن من خلال هذه الدراســـة أهمية المصادر المادية في التأريخ لبدايات انتشـــار الإســـلام في مـــدن وممالـــك إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فتلك المصـــادر تقدّم أدلةً موثوقةً يمكن الاعتماد عليها بكل طمأنينة إزاء هـــذه القضية، التي اختلفـــت حولها المصادر المدوّنة الجغرافية منها والتاريخية، فضلاً عن اعتماد تلك المصادر على روايات شفهية كثيرة متضاربـــة أحياناً، جعلت كثيـــراً من الباحثين يشـــككون في واقعيتها، ولاســـيما تلك الأخبار المتعلقة بنشـــر الإســـلام في إفريقيا جنوب الصحراء على أيدي بعض الصحابة والتابعين، كما هو الحال في جزر القمر، ولامو، وتادمكة، وغانة، وجاو.

وختاماً؛ يمكننا القول بأنه في ضوء نشـــر العديد مـــن تقارير الحفائر الأثريـــة مؤخراً، والمتعلقـــة ببعـــض مواقع المـــدن والممالك الإسلامية المشـــهورة في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، أصبح لزاماً على الباحثين المهتمين بتاريخ تلك البلدان خلال العصر الإسلامي أن يوجِّهـــوا اهتمامهم نحو دراســـة هذه التقارير، والاســـتفادة مـــن معطياتهـــا، وتوظيفها في إعـــادة كتابة تاريخ تلك البلاد، بل وتوصي هذه الدراســـة بإعادة النظر فيما كُتـــب عن تاريخ إفريقيا في العصر الإسلامي استناداً للمصادر الماديـــة التي تُقدّم معطيات غايةً في الأهمية، ولاســـيما على صعيد التأريخ لانتشار الإسلام، وتاريـــخ الصلات بيـــن هذه البلـــدان بعضها ببعض، وصلاتها بالعالم الإســـلامي، والتاريخ الاقتصادي، استناداً للمكتشفات التي تضمنتها تقارير الحفائر الأثرية وشواهد القبور ■